

رجل مهم

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

منقولة عن موقع بص وطل

لأنني من عشاق كتابات د. أحمد خالد توفيق منذ الصغر، فقد فكرت في جمع قصصه ومقالاته المجرأة في كتيبات صغيرة، يحتوي كل كتيب على قصة مكتملة أو موضوع مستقل، حتى يسهل على محبيه الاستمتاع بكتاباته الرائعة.

مدونة اقرأ

تاريخية ، ثقافية ، سياسية



رجل مهم

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

رسوم فواز

منقولة عن موقع بص وطل

لكي نفهم ما حدث، لابد أن نحكي القصة من بدايتها.. لا يمكن أن نبدأ باللقاء الأخير بين (ثروت) و(دافني) أو ما سمعه من (أدونيس). هذه أشياء سوف يأتي وقتها؛ لكن لا يمكن أن نبدأ بها.. ألا ترى أننا نضيع الوقت في الجدل بينما هو قصير أصلاً؟.. لو كنت تريد أن أحكي القصة بالأسلوب الذي يروق لك؛ فإنه لمما يسرنني أن تجلس أنت وتحكي بينما أصغي أنا.. من فضلك دع لي هامشاً من الحرية في السرد، وأنا أعدك بأن تفهم كيف تطورت الأمور

أنت تعرف (ثروت البربري)... عينان ملونتان لهما لون البرسيم، وشعر بني مجعد، وقامة نحيلة. الطبيب الشاب المفعم بالأحلام، والذي يعرف يقيناً أنه سيكون رائعاً وسوف يبهر العالم.. ربما يحكمه كذلك

هنا يجب أن نقول إن نمط (ثروت) شائع نوعاً بين الأطباء؛ فهو من أصل ريفي.. ومنذ دخل كلية الطب نال احتراماً ووضعاً مرموقاً جداً في قريته. إنه يفحص المرضى بقلب جريء ويكتب العلاج لهم منذ أول يوم له في الكلية، وبالطبع يرتكب أخطاء قاتلة، ثم مع الوقت بدأ يتكلم.. يتكلم في السياسة والدين والأدب والفلسفة، وكان يتكلم بلا أية خلفية ثقافية أو قراءات يستند إليها؛ لكنه تعلم أن الناس يصغون له باهتمام واحترام.. إن (الدكتور) يتكلم فانصتوا



إنه الخلط المعتاد في مجتمعنا؛ حينما يفترض أن المتفوق في دراسته مثقف حاد البصيرة كذلك. وهكذا كانت آراؤه تتخذ صيغة شبه مقدسة، ولكم من مرة جلس رجال واسعو الخبرة شابت شعورهم وشواربهم يتناقشون في قضية ما، ثم يلتفتون نحوه قائلين

"فلنسمع رأي الدكتور في هذا"...

كان يتنحنح ويتكلم في وقار.. يقول أي شيء؛ فكانوا يوافقون على كلامه في احترام

مع الوقت ازداد جهلاً وضيق أفق.. وازداد غروراً كذلك.. وبدأ يظهر تمللاً كلما سمع مناقشة تدور أمامه في أي موضوع، كأن لسان حاله يقول

"لم لا تصمتون وتصغون لصوت الحجة؟"

يجب أن يستنوا القوانين التي تجعله هو المتكلم الوحيد

كنت أنا طالبًا في كلية التجارة، وقد عرفته عن طريق مسكن للطلاب المغتربين؛ فأثار دهشتي أنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق. ذات مرة عرض التلفزيون فيلمًا أمريكيًا عميقًا شديد الأهمية والتعقيد؛ فجلسنا نتكلم عنه.. هنا تدخل ليبيدي رأيه.. كتمت ضحكتي بصعوبة، وأنا أسمع آراءه الساذجة في الفن، ورؤيته (العميقة) للفيلم

لكن أثار دهشتي أن رفاقي يصغون له باحترام، ويؤمنون على كلامه

مهما قيل؛ فإن المصري يحمل احترامًا عميقًا تاريخيًا للطبيب والضابط والقاضي.. مع ترجيح كفة العقل بالنسبة للطبيب؛ لأنه لا يمكن أن ينال شخص كل هذه الدرجات في امتحان الثانوية العامة ما لم يكن حكيماً.. وهو خلط واضح بين ملكة الحفظ وسعة الاطلاع والثقافة والذكاء

هكذا عرفت (ثروت).. وهكذا كانت بيننا صداقة سطحية؛ لأنني بصراحة لا أطيق الأغبياء.. قد أقبل الجهلة إذا كانوا أذكياء، وهذا نمط لقيته كثيرًا.. مثل بواب البناية التي أقيم بها، ومثل تلك البائعة في السوق التي تشع عيناها ذكاء وألمعية

تخرجنا وتفرقت السبل؛ فلم أعرف هذه التفاصيل إلا متأخرًا جدًا، ومن فمه شخصيًا

كانت البداية هي أنه عندما ينام يشعر بأنه ليس وحيدًا

كان طبيبًا مقيمًا للتحاليل الطبية (الباثولوجيا الإكلينيكية) في مستشفى تعليمي بالقاهرة، وكانت الظروف تضطره أحيانًا أن ينام وحده في الطابق كله

يقول إنه كان يشعر بأن هناك من يقفون حول فراشه. نهض أكثر من مرة مذعورًا وبسمل وحوقل، ونظر حوله فلم ير أحدًا. في بعض المرات سمع من يتكلمون.. والأغرب أنه سمع مرارًا صوت

كليك.. كليك.. كليك



أما عن اختفاء الأشياء فهذا موضوع آخر؛ السماعة الطبية التي سرقت منه على سبيل المثال، سرقت من جوار فراشه وهو نائم، لم يسرق منه شيء من قبل، وهو يعرف يقيناً أن الغرفة كانت مغلقة من الداخل؛ ولكنه صحا من النوم فلم يجدها. هذا لغز بلا حل

هناك كذلك فقدان المناديل والأقلام.. تقريباً لم يعد يوم يمر من دون أن يكتشف نقصاً في مناديله أو أقلامه. الأقلام لا تعيش في أية مستشفى، ومن المستحيل أن تمضي اليوم بذات القلم؛ لكن الأمر كان يتجاوز الحدود المعروفة

هكذا بدأ يشعر بقلق عظيم

أعتقد أن (ثروت) كان سيلاحظ ما هو أكثر لو كان أقل غباء وضيق أفق

على أنه في المستشفى لاحظ أن هناك مجموعة غريبة من الأطباء لم يرههم من قبل.. كان هناك رجلان وثلاث نساء على درجة عالية من الجمال.. أعني كلهم طبعاً وليست النساء فقط.. كان لهم طابع غريب.. ليسوا عرباً لكنهم كذلك ليسوا أجانب.. التناقض الذي فسره البعض بأنهم أتراك

همسات عديدة ترددت في المستشفى عن سر هؤلاء.. خاصة أنهم دخلوا مكتب المدير وقضوا وقتاً طويلاً هناك، وفي النهاية خرجت سكرتيرة المدير تبحث عن (ثروت).

سقط قلبه في قدميه. المدير لا يحتاج له أبداً ولا يطلبه ولا يكلمه أصلاً، فماذا استجد؟

دخل المكتب ليجد مجموعة الأطباء الغريبة جالسة هناك، وكانوا يرمقونه في فضول

قال له المدير وهو يلوح بخطاب رسمي كئيب الشكل

-"د. ثروت.. وكيل وزارة الصحة يوصينا خيراً بهذه المجموعة من الأطباء الأجانب التي ستمضي أسبوعاً معنا.. إنهم أتراك، وهم راغبون في أن يتابعوا عملك في المختبر.. لا تقلق من ناحية اللغة فهم يجيدون العربية".

لماذا أنا بالذات؟.. هناك مختصون أقدم مني وأكثر خبرة. ولماذا هذا المستشفى فقير الإمكانيات بالذات؟.. لم يسمع أحد من قبل أنه مركز يأتيه الأجانب ليتعلموا. لكن (ثروت) كان مغروراً كما قلنا لذا عرف السبب على الفور: إنه الأبرع والأرجح عقلاً

هكذا خرج مع مجموعة الأطباء شاعراً بفخر جهنمي وهو يمشي بهم في طرقات المستشفى، ونظرات الفضول -ربما الحسد- تلاحقه. وكلما حاول أحد أن يتصل بهذه المجموعة كان يتولى هو الرد، كأنه زوج غيور لا يطيق أن يكلم أحد زوجته

وفي المختبر راح في خطورة يشرح لهم مدى عظمة ما يقوم به
 أمسك أنبوب اختبار مليئاً بالمصل، وناولته أجمل طبيبة في المجموعة.. وتظاهر بأنه يسند يدها كي لا
 تهتز فأمسك بمعصمها، وسره أنها لم تحتج.. سألها
 "ما اسمك؟"



كان لها أنف أفنى جميل، ونظرة يمكن أن تذيب شمعة.. قالت له
 "دافني".
 "عاشت الأسامي"
 غبي كما قلنا؛ لهذا لم يلحظ أن للاسم طابعاً إغريقياً.. مستحيل أن يكون هذا اسماً تركياً. على كل
 حال عرف أن المجموعة تضم (أياد) و(أدونيس) -اسم إغريقي آخر -و(ميريام) و(نيتوكريس)..
 وكانوا يتكلمون العربية بطلاقة مذهلة.. لا يوجد أدنى ظل من اللكنات الأجنبية
 لاحظ أنهم يتابعونه في نوع من الإعجاب والوله، ويلاحظون كل شيء يقوم به. المدعوة (ميريام)
 التقطت له صوراً كثيرة فحرص على أن يبدو خطيراً حاذقاً
 جاءت ممرضة تحمل مجموعة من العينات، وسألت (نيتوكريس) بفضول شعبي محبب
 "أين تقيمون؟"

هنا تدخل (ثروت) في عصبية صائحاً
 "هذا ليس عملك!.. أية أسئلة توجه لي أنا فأنا المسئول عنهم".

سألته الممرضة من جديد

"أين يقيمون؟"

"لا أعرف" ..

هنا قال المدعو (أياد) -

"فندق (.....) ... إنه جميل جدًا"

لم يكن (ثروت) قد رأى فندقًا في حياته، لكنه تظاهر بأنه يعرف الفندق جيدًا وأنه سيقبله على مضض باعتباره ليس الأفضل

عند نهاية اليوم كانوا سعداء جدًا، وقد دنت منه (دافني) وطلبت في تأدب أن يوقع لها على الأوتوجراف. نظر لها في دهشة فقالت

"يشرفني أن يكون معي توقيع شخص مهم جدًا مثلك"



كان يوشك على البكاء.. سوف يتزوجها.. بالتأكيد سيتزوجها ويعود بها لقريته ليراها (البسيوني) و(الششماوي) ويحسدها. سوف تقول النساء العجائز لبعضهن (هذه زوجة الدكتور). هكذا وقع لها.. من جديد طلبت منه الاحتفاظ بقلمه للذكرى

"إلى الغد" ..

"إلى الغد" ..

عندما نام في تلك الليلة كان الفراش يعلو به ويهبط فخرًا.. قال لنفسه إن السحر المصري لا يقهر، فلا توجد أنثى غريبة يمكنها مقاومة ذكر مصري وسيم وذكي مثله

سوف أتزوجها.. سوف أتزوجها.. حاول أن يتذكر اسمها فلم يستطع.. هكذا قال لنفسه إنه سيتزوج (دافية) هذه

وفي الثالثة صباحًا شعر بشيء غريب

بالفعل سمع صوت الكلام وأن هناك من يتحرك في الغرفة، وأن هناك من يقف جوار الفراش. هذه المرة لم ينهض بل فتح جفنيه ملليمترًا واحدًا

في الضوء الخافت القادم من الممر رأهم.. كانوا هم.. نفس مجموعة الصباح التركية، وكانوا يقفون في الغرفة.. فجأة رأى واحدة تدنو منه مصوبة الكاميرا وتلتقط له عدة صور، فحاول جاهدًا ألا يفتح عينه



ما معنى هذا؟.. كيف دخلوا هنا؟

لو تحرك لفتكوا به على الأرجح لأنهم أكثر منه عددًا.. لا سبيل للنجاة سوى أن يتظاهر بالنوم

سمع صوت (أدونيس) يقول

"دافني.. هذا كاف"

قالت وهي تفتح خزانة الثياب

"لا أصدق أن هذه ثيابه.. هذا حذاءه.. هذه جواربه.. شيء مذهل فعلاً"

كان (ثروت) ضيق الأفق كما قلنا؛ فلم يعلق أهمية على كونهم يتكلمون العربية فيما بينهم، كما يحدث في الأفلام عندما يتكلم القادة النازيون الإنجليزية حتى في اجتماعاتهم المغلقة.. كان التفسير سهلاً عنده.. يتكلمون العربية لأنها أسهل في الفهم

قالت (نيتوكريس)-

"هل أنتم واثقون من أنه لا خطأ هنا؟"

قال (أياد) بصوته الغليظ المميز

"طبيب يدعى (ثروت البربري) في مستشفى (.....) التعليمي، وفي العام 2010.. هل هناك احتمال خطأ؟"

قالت (نيتوكريس)

"لا يبدو لي شخصاً مهماً"

قال (أدونيس) بلهجة قاطعة

- كل الأشخاص المهمين في التاريخ لم يبدووا كذلك في البداية.. لم يكن أحدهم يطير أو يخرج ناراً من فمه.. (أنور السادات) كان مجرد سائق لوري يضع على رأسه طاقيّة صوفية.. (بنيامين فرانكلين) كان رث الثياب مضحكاً فسخرت منه فتاة في الشارع، والغريب أنها تزوجته بعد ذلك!.. هيا بنا!-

وسرعان ما ساد الصمت، وفتح (ثروت) المذهول عينيه ليجد أنهم رحلوا

ما معنى هذا الكلام؟

هل هم مجانيين؟.. هل هم لصوص؟

تذكر طريقتهم في الاستماع له والتقاط الصور في كل لحظة، وبدأ يشعر بتوتر.. يتصرفون لا كطلبة يبعثون العلم بل كسياح في موقع أثري!.. نعم.. هذا هو الشيء الذي لم يعرف كيف يعبر عنه من قبل... لكن لماذا؟

هو عظيم.. يعرف هذا جيداً، لكن من قال لهم؟.. لم يجد الوقت ليفعل شيئاً يكشف هذه العظمة؛ فما سر هؤلاء؟.. كيف دخلوا الغرفة وكيف خرجوا منها؟

في الصباح كان متوتراً محمر العينين، وظهر هذا في طريقة تعامله معهم. كان عصبياً لدرجة أنه هشم أنبوب اختبار به مصل واخترق الزجاج يده.. إنه عاجز اليوم عن القيام بعمله بشكل صحيح.. برغم هذا التقطوا ليده عدة صور كأنهم يصورون إحدى البرديات

في النهاية لف يده بالشاش وانفرد بـ (دافني) في ركن المختبر جوار جهاز (إليزا)، فقال لها
 "الآن أريد تفسيراً"

نظرت له في دهشة، فقال ضاغطاً على كلماته
 "لن تخذعيني.. أنتم تتسللون لغرفتي ليلاً"
 "من الذي.....؟"

"أنا أقول.. لو لم تفسري فسوف أحكي كل شيء للمدير وأطلب إعفائي من تعليمكم"



هتفت في جزع

"أرجوك.. لا"

ثم ساد صمت ثقيل.. ظلت تنتظر للأرض ثم رفعت عينها وقالت

"يصعب أن أشرح كل شيء.. أنت لا تفهم معنى السياحة التاريخية. لو أنك منحت الفرصة للعودة
 إلى زمن كليوباترا والحديث معها والتقاط الصور فهل تفعل؟"
 "لا.."

اندهشت من الرد الأحمق، فعادت تقول

"ليكن.. بعض الناس يرغبون في ذلك.. فلنقل إنني ومن معي لسنا من هذا الزمن أصلاً.. جننا لهذه
 الفترة كي نلتقي بك ونصور كل شيء.. حياتك.. طريقة تفكيرك.. عملك.. ألم تلحظ اختفاء أقلامك
 ومناديلك وسماعتك الطبية؟.. إننا نجمع هذه الأشياء.. سوف تساوي ثقلها ذهباً في عالم الغد.. العالم
 الذي جننا منه".

لم يفهم شيئاً على الإطلاق سوى أنهم لصوص.. عاد يسأل

"والورقة التي كلفنا بها السيد وكيل الوزارة؟"

"مزورة" ..

"ولماذا؟.. لماذا أنا بالذات؟"

اتسعت عيناها وقالت

"لأنك. لأنك مهم جداً.. سوف يتغير تاريخ العالم بسببك"

راق الكلام لـ (ثروت) برغم أنه لم يفهم معظمه، وعاد يسألها

"تاريخ العالم؟.. هل تعنين أنك تتوقعين أن أصير رئيس الجمهورية؟.. أنال جائزة نوبل؟.. أشتري أرض (الششماوي)؟"

قالت وهي تكرر أنفها الأفتى الجميل

- "لا أستطيع التفسير.. نحن ممنوعون من التفسير وإلا تصرفت بطريقة تغيّر التاريخ. لاحظ أنك بالنسبة لنا ماض يحرم علينا تغييره.. فقط أكتفي بقول إن كل طفل في الرابعة في عالمنا يحفظ اسمك جيداً، وربما لديه صورتك" -

لم يصدق حرفاً لكن.. ربما كان هذا هو التفسير الوحيد لظهورهم في غرفته والباب مغلق. لو كان كلامهم صحيحاً؛ فمعنى هذا أنه محق بصدد نفسه.. إنه شخص مهم جداً.. مهم لدرجة أن يعكف خمسة أفراد على التقاط الصور له وجمع أقلامه ومناديله.. مهم لدرجة أن يتسللوا لغرفته ليصوروه وهو نائم ليلاً

لقد كان على حق

لكن.. لن يندفع للجنون بتصديق هذا الكلام الفارغ، إنهم يعبثون به

سألها

"أنتم مصريون طبعاً؟"

ابتلعت ريقها وهزت رأسها أن نعم

"وهذه الأسماء الغريبة؟"

"هكذا ستكون أسماؤنا في الغد.. إن الأسماء تتغير مع الزمن"..

أمسك بيدها بشيء من العنف، لكنها لم تجفل وقال

- "اسمعي يا كتكوتة.. أنا لا أصدق حرفاً من هذا السخف.. هذه (اشتغالة) لا أبتلعها.. سوف تأنين معي لمكتب المدير، وهناك تحكين هذه القصة من جديد..".

"لا أستطيع"..

هنا وجد أن الباقيين يقفون حولهما.. يبدو أن وقت العراك قد جاء.. لكنه سوف يصرخ.. سوف يأتي عمال المستشفى ليمزقوهم

فتح فمه ليتكلم

لكن.....



هل هذه اللطخة الكبيرة من الدم جاءت منه هو؟

المعطف ملوث بالدم.. الدم يتساقط من منخريه بلا توقف.. ماذا حدث؟

رفع عينيه نحوهم في جزع فوجدهم يلتقطون الصور.. وقال أدونيس وهو يبعد الآخرين

- "هذا هو.. البداية.. لقد انتقل له الوباء من أنبوب الاختبار الذي تحطم.. لا تخافوا يا شباب فنحن جميعاً تلقينا اللقاح لكن لا تلمسوا شيئاً منذ هذه اللحظة".

"لا.. لا.. أفهم"..

قالت (دافني) وهي تنهض

"نحن طلبة طب جننا من المستقبل كما قلت لك.. مهمتنا أن نقابلك ونعرف كيف بدأ كل شيء، وأن نلتقط الكثير من الصور.. أنت أول حالة من الوباء الذي أباد ثلاثة أرباع البشر والذي بدأ اليوم حسب كتب التاريخ.. الوباء الذي أطلق عليه العلماء اسم (بربريا) نسبة لأول من مات به، لهذا قلت لك إنك مهم جداً في تاريخ البشرية، وقد احتجنا لأعوام طويلة كي نعيد الحضارة ونبدأ من جديد.. اليوم نحن نرى مولد الوباء".

قال (أدونيس)-

"الغريب أن صاحب الدم الأصلي لم يصب بالوباء" ..

صاح (ثروت) وهو يحاول النهوض

"أنتم مجانيين.. مجا"....

ثم سقط على ركبتيه فقال (أدونيس) وهو يلتقط المزيد من الصور

"فعلاً.. الأعراض هي نزف من كل فتحات الجسد ويبدأ فور العدوى.. هل ترون هذا الدم المتدفق من العينين يا شباب؟.. إنها علامة (ثروت) الشهيرة التي تميز هذا الوباء عن سواء من الحميات النزفية".

"أنتم تمزحون"



قالت (دافني) في برود علمي

"لا فارق.. صدقت أم لم تصدق؛ لكنني أشكرك على الساعات التي قضيناها معك.. بالفعل أنت أهم شخص في تاريخ البشرية على مدى ثلاثمائة سنة.. كل طفل في عالمنا يعرف اسم (ثروت البربري).. أول من مات بالوباء الرهيب".

قالت نيتوكريس

"أعتقد أن علينا الرحيل يا شباب"

صاح (ثروت) والدم يسيل بلا توقف من أذنيه هذه المرة

"انتظروا.. متى ينتهي هذا؟"

"خلال يومين.. لا أحد يعيش أكثر من يومين!...والآن سوف نعود لعالمنا"

وسرعان ما كانوا يغادرون المختبر في مزيج من الرعب والحماسة والفوضى.. لابد أنهم يمزحون.. لابد أن هذا مقلب

لم يكن (ثروت) يعرف أنني سأزوره غدًا في المستشفى، وأنني سأنال نصيبي من العدوى مع كل من تعامل معه؛ هذا قد يغفر لي بقع الدم المتناثرة على هذه الأوراق

فتح فمه ليصرخ فشرق بالدم.. لكنه استطاع أن يخرج الصيحة

"دافني!.. هل تنزوجيني؟؟؟"

تمت